الباب الثانى

محمد على والأسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

دور محمد على فى ضرب الأسلام :

لقد قام محمد علي نيابة عن الدول الصليبية المهووسة بعداء الأسلام في ذلك الوقت مثل فرنسا وروسيا وبريطانيا بتوجيه ضربات موجعة للاسلام في كل من مصر والجزيرة العربية والشام والخلافة العثمانية مما كان له أثر في تهيئة العالم الاسلامي للأطماع الغربية، وهذا الدور الخبيث تمثَّل في عدة نقاط قام بها محمد علي :

١ ـ ضرب جبهة العلماء داخل مصر واتخذ أقذر الوسائل من قتل ونفي وتشريد وقطع أرزاق وتلفيق تهم وتشويه رغم أن العلماء هم الذين جاءوا به للسلطة .

٢ ـ حرب ومقاتلة حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية بناءً على طلبات الدول الصليبية التي ضاقت من مد إسلامي وبعث جديد للإسلام الصحيح النقي .

ولكن ما آلت إليه هذه الدعوة المباركة من التمكين في الأرض والأنتشار بعد ذلك كان على عكس ما سعى إليه محمد علي وبنوه من بعده ، وحقيقة حرب محمد علي للدعوة السلفية لم تكن بين قوات يدين طرفاها بالأسلام بل كانت حرب بين موحدين مؤمنين ومجرمين مارقين ، كان كثيراً منهم من لقطاء نصارى الدول الغربية وبعض دول آسيا

الصغرى على نمط القوات الأنكشارية التي كان العثمانيون يستعملونهم للخدمة العسكرية في الأماكن النائية .

واسمع ما يقوله الجبرتي في وصف الهزيمة التي وقعت على جيوش محمد علي في أول الأمر على يد السلفيين:(أين لنا النصر وأكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين أصلاً، ولا ينتحل مذهباً ، وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرصتنا أذان ولا تقام به فريضة، والوهابيون إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفًا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع وينادون في معسكرهم هلموا إلى حرب المشركين المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط الشاربين الخمور وكشفوا عن كثير من القتلى فوجدوهم غلفًا غير مختونين ؟؟ .

٣ ـ من ضمن الوسائل التي حارب بها محمد علي الأسلام تقريبه لأعداء الأسلام من مختلف الملل والنحل وإبعاده للمسلمين فلقد أحاط نفسه ببطانة ومساعدين من نصارى الأروام والأرمن وكتبة من الأقباط واليهود، يقول عن ذلك الجبرتي: فتح الباب للنصارى من الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم ، وكان بوغص بك بمثابة رئيس وزرائه وهو نصراني أرمني .

٤ـ كما كان يحب أن يظهر أمام الغرب بصورة المتحرر من كل قيود الدين، فقال للفرنسيين وهو يفاوضهم على احتلال الجزائر ثقوا أن

قراري لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الأعتبارات التي يتقيد بها قومي وقد تقولون إن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها.

٥ـ وعندما وقعت ثورة اليونان الصليبية على حكم العثمانيين أراد أن يظهر بصورة الناصر والمتعاطف مع تلك الثورة فسمح لليونانيين الذين يقيمون في مصر بالسفر إلى اليونان والأنضمام للثورة كما حرر مماليكه الذين من أصل يوناني وأرسلهم هناك للغرض نفسه.

٦ـ قام محمد علي ولأول مرة في تاريخ الجيوش الاسلامية بإدخال عناصر غير مسلمة مثل الأقباط واليهود في الجيوش المصرية مما ترتب عليه إضعاف الجيوش ومن شدة حبه وتقريبه لأعداء الأسلام من كل ملة ونحلة اكتسب محمد علي دعاية واسعة وكبيرة لدى شعوب أوروبا حيث يُعرف بأنه يعطف على النصارى في بلاده حتى أن الحكومات الغربية كانت تتجنب الصدام معه لشعبيته الجارفة عند شعوبهم.

٧ ـ عمل محمد علي على تفتيت دولة الخلافة فشن حروباً واسعة بسبب أطماعه ومحاربته للدعوة السلفية تحول إلى سكينٍ بيد أعداء الأسلام يمزقون به جسد الأمة ، فتوغل في السودان لنهب ثرواتها حتى وصل إلى منابع النيل ثم توجه إلى الشام، ودخلها بعد حروب مريرة راح ضحيتها الأف من المسلمين ثم أظهر خلافه وعصيانه للسلطان العثماني

سنة ١٢٤٨هـ وأخذ في محاربة جيوش الخلافة حتى كاد أن يسقط دولة الخلافة كلها.

٨ـ مراحل احتلال قوات محمد علي للشام أكدت على اتجاهه المعادي للمسلمين والمساند للنصارى واليهود، وأكدت أيضاً أنه كان منفذاً لأهداف بريطانية على الصعيد السياسي والأهداف الفرنسية على الصعيد الثقافي ولقد فتح محمد علي الباب على مصراعيه لدخول بعثات التنصير الفرنسية والأمريكية وألغى كافة القوانين الأستثنائية وجميع ما كان يسري على النصارى وحدهم ، ويعتبر الصليبيون عام ١٨٣٤ م تحول تاريخي لأنشطة التنصير .

٩ـ من آثار محمد علي على الأسلام أنه أصبح نموذجاً وإماماً تحتذي به الدول الأوروبية في صنع عملائها داخل ديار المسلمين كمصطفى كمال أتاتورك الذي جاء من بعده وأتم المهمة التي بدأها محمد علي في إسقاط دولة الخلافة وحرب الأسلام.

١٠ ـ من أخطر الضربات التي وجهها محمد علي إلى الأسلام أنه فتح باب مصر والشام على مصراعيه أمام حملات التغريب والغزو الثقافي الغربي للمسلمين والحضارة الاسلامية وسمح للمؤسسات المشبوهة والمعادية للإسلام مثل محافل الماسونية وإرساليات التنصير والأديرة والكنائس والمدارس الصليبية التي بذرت بذور التيارات القومية المعادية

للإسلام، فتح محمد علي الباب أمام التغريب والغزو الثقافي بابتعاث الطلبة المسلمين لفرنسا بدعوى تلقي العلوم والمعارف الحديثة، وهم في سن المراهقة غير محصنين بشيء لينغمسوا في حلقات الضياع والشهوات والشبهات .

ولذرِّ الرماد في العيون أرسل معهم أئمة للوعظ والصلاة فماذا فعل أولئك الأئمة؟ هذا هو الطهطاوي يعيش فى فرنسا فينبهر بها انبهارًا يدفعه لخلع الجبة والقفطان ولبس البدلة والقبعة ويؤلف كتاب أخبار باريس الذى دعا فيه إلى تحرير المرأة وإلى السفور والأختلاط وأثنى على الرقص وأظهر تأثراً وإعجاباً بآراء مونتسكيو وروسو، ثم جاء من بعد الطهطاوي رجال سار على درب الوطنية والقومية والتغريب الذي بذر بذرته محمد علي أمثال علي مبارك وإبراهيم أدهم وصالح مجدي ومحمد عثمان جلال وعبد الله أبو السعود وعبد الله فكري وطه حسين وغيرهم حتى وقتنا الحالي حتى أننا نرى أن وزير الثقافة التغريبى المصري يقيم احتفال كبير كل سنة بمناسبة الحملة الفرنسية على مصر! بدعوى أنها كانت السبب في التنوير الثقافي الذي حدث بعد ذلك بمصر .

ما سبق بعض ما نكب به محمد علي الأسلام بمصر والشام خاصة وسائر بلاد المسلمين عامة مما يكشف حقيقة محمد علي ويسقط الهالة

الكبيرة المصطنعة عمدًا على شخصية صاحبة أسوأ أثر على الأسلام والمسلمين.

زرع الماسونية في العالم العربي والاسلامي:

لقد كانت الماسونية من أقدم الأفكار الغربية وصولاً إلى أرض مصر؛ حيث جاءت مع الحملة الفرنسية كي تخدم الأهداف الفرنسية في الشرق، وعملت كطابور خامس للسياسة الغربية حيث جلس المصري تحت رئاسة الأجنبي ليسمع وينفذ الأوامر والتعليمات.

وفي تلك الفترة كان الدور الفكري للماسون أكثر وضوحاً ، حيث دخل كثير من القيادات السياسية ورجال المال في الماسونية ، وكان دور أفرادها في الاقتصاد المصري بارزًا خاصة اليهود، ، وكانت هذه الفئات تتباهى بماسونيتها دون إخفاء؛ حيث كانت الصحف والمجلات الماسونية وغير الماسونية تنشر الكثير عن أعمالهم، وفي كثير من الأحيان تنعتهم بالألقاب الماسونية دون حرج، فالماسونية في مصر كانت تضفي وجاهة اجتماعية على أتباعها، بل كان تدخل الماسونية في السياسة علنيًا وليس سرياً، ويوماً بعد يوم أصبحت الأسرار تنكشف، فتاريخها في العصر الحديث يتسم بغموض شديد وقد كان للثورة الفرنسية وحروب نابليون دور في خدمة الماسونية، وكيف انتشرت محافلها داخل الدول العثمانية وأقاليمها مترامية الأطراف، وظهرت أول مرة في مصر عام ١٧٩٨م

وبدأت بواسطة الماسون الفرنسيين من قوات نابليون الذي أذاع منشورًا يؤمِّن فيه المسلمين على دينهم، ثم قرر بعد ذلك إنشاء محفل ماسوني باسم إيزيس.

ونجح محفل إيزيس تحت قيادة سيده الأول الجنرال كليبر حتى مقتله عام ١٨٠٠م، وبعد انسحاب الفرنسيين من مصر انتقلت الماسونية إلى السرة، وفي عام ١٨٣٠م كوَّن الأيطاليون محفلاً سياسيًا لهم كانت تراقبه السلطات المصرية، وتأسس محفل فرنسي تحت اسم مينس.

وأكثر الأعضاء النشطين في شعائر ممفيس كان صموئيل حنس، وكان أعضاؤه أكثر من أي محفل ماسوني آخر حيث تأسس في الأسكندرية محفل الأهرام عام ١٨٤٥م ، وكذلك في القاهرة والسويس والأسماعيلية وبورسعيد، وقد ضم محفل الأهرام بالأسكندرية عددًا كبيرًا من القادة والوجهاء، وكان من أشهرهم الأمير عبد القادر الجزائري الذي حارب الفرنسيين في الجزائر فتم نفيه إلى سوريا هو وأسرته.

وفي عام ١٨٣٦م قرر المحفل الممفيسي الفرنسي الأكبر عمل شرق مفيسي مصري فانضم إليه عدد كبير من المحافل، وعملوا في انسجام كامل حتى قرروا توحيد العمل عام ١٨٦٤م.

وفي عام ١٨٨١م أصبح توفيق خديوياً لمصر وتولى أيضاً رئاسة المحفل الأكبر الوطني المصري وعين وزير العدل حسين فخري نائباً لرئاسة المحفل وكان عدد المحافل يقرب من ٥٦ محفلاً ثم تخلى الخديوي لإدريس بك راغب عن الرئاسة ومن أشهر المنتمين للماسونية من الرموز الكبرى أمثال الأمير عبد القادر الجزائري وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والشيخ محمد أبو زهرة وغيرهم وربما كان هؤلاء من المخدوعين في الشعارات التي رفعتها المحافل الماسونية حول الحرية والأخاء والمساواة، وبعضهم كان يحاول الأستفادة من عضويته الماسونية لخدمة قضايا الوطن، ولما تبين لها أن الشعارات ليست الأ خدعة كبرى كان الأنسحاب هو الحل.

حقيقه محمد على باشا الباطنى الشيعى

محمد على له علقاة بالبكتاشية الباطنية وتوجد علاقات مشتركة بين البكتاشيين والصفويين وحكام الأسرة العلوية، وهذا الثلاثي الباطني هو أخطر التنظيمات التي أدت إلى إضعاف السلطنة العثمانية، وإسقاط الخلافة الاسلامية السُّنِّيَّة باعتبار إسقاطها هدفاً مركزياً للباطنية المعادية لأهل السُّنة والجماعة.

ولإيضاح خطر البكتاشية البكداشية البكطاشية نسلط الضوء على مؤسسها الباطني خنكار الحاج محمد بكتاش الخراساني النيسابوري

المولود في نيسابور سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨م، والذي دسَّ زمرته الباطنية في صفوف الجيش الأنكشاري فأفسدته، وحوَّلته إلى أداة طيعة فى أيدي البكتاشيين الباطنيين الشيعة عملاء الصفويين.

وإحياء البكتاشيين لطقوس العبيديين في مصر، وتسليط الضوء على كهف السودان الذي يُعرف بعدّة أسماء هي: كهف السودان، وتكية البكتاشية، وضريح عبد الله المغاوري، وزاوية المغاوري، وخانقاه وتكية المغاوري ويعود تاريخ إنشاء كهف السودان إلى عهد الحاكم العبيدي الباطني وممن أقام بهذا الكهف البابا قابغوسز الأرناؤوطي المشهور باسم عبد الله المغاوري الذي حضر إلى مصر سنة ٧٦١ هـ/ ١٣٥٩م، وأقام بالقاهرة، ثم سافر إلى الحجاز ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م، ثم سافر إلى العراق وزار النجف وكربلاء، ثم عاد إلى مصر مرة أخرى سنة ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦م، ومات فيها سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥م، ودفن في القبر المعروف باسمه في كهف السودان، وتتابع دفن باباوات البكتاشية في كهف السودان، وخلال الفترة من سنة ١٣٢١ هـ/ ١٩٠٣م إلى سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م قام كلاً من الأمير كمال الدين حسين نجل السلطان حسين كامل ١٩١٤-١٩١٧ م والأمير لطفي أحد شيوخ التكية – بتجديد ضريح البابا عبد الله المغاوري الأرناؤوطي وقد دفن حسين كامل في كهف البكتاشية المقدس مما يؤكد الرابطة بين الأسرة والحركة البكتاشية، وهّناك علاقة

بين البكتاشية وملك ألبانيا السابق أحمد الذين دُفنت ابنتاه روحيّة ونافية في كهف السودان وسبب تسليط الضوء على كهف البكتاشية: أن اهتمام أبناء الأسرة العلوية به يشكل قرينة على علاقة الأسرة الروحية بالحركة البكتاشية الباطنية المعادية لأهل السُّنَّة والجماعة بشكل عام والمعادية للسلطنة العثمانية بشكل خاص.

ومن قرائن اهتمام الأسرة العلوية بالبكتاشية صدرور أوامر محمد سعيد باشا (١٨٥٤-١٨٦٣م) بتخصيص المغاره التي دُفن فيها عبدالله المغاوري قبوغوسز للطريقة البكتاشية، وهذا يعني أن رابع حكّام أسرة محمد علي باشا قد جاهر بولائه للبكتاشية الباطنية التي تعتنقها الأكثرية الألبانية الأرنؤوطية في آقجه حصار تيرانا وغيرها ومن أبرز القرائن انتقال التكية البكتاشية المركزية من ألبانيا إلى مصر برعاية الحكومة.

وبعدما هُزمت البكتاشية في إسطنبول وما حوْلَها، وانتقلت من العَلَن إلى السرِّ بدأ ازدهارُها فى ألبانيا بعدما هاجر إليها صالح نيازي، وصار فيها دده بابا ثم قُتل سنة ١٩٤٢م، وحلَّ محلَّه ابنُه عباس دده بابا الذي انتحر سنة ١٩٤٩م، وبعد مصرعه انتقل مركزُ البكتاشية الرئيسي إلى القاهرة في مصر، وحظيت البكتاشية الباطنية برعاية آل محمد علي باشا، وتغلغلت بين البسطاء فاستغلتهم، وتولى توجيهَها رؤوسُ الباطنية السريين الذين حاولوا إضعافَ جُمهور المسلمين السُّنَّة في مصر عن

طريق تضليلهم، وتفريق كلمتهم، وموالأة أعدائهم من البدعيين وغير المسلمين.

جوامع مشتركة بين محمد علي والبكتاشية، منها

الغموض الذي يحيط بأصول بأسرة محمد علي باشا، وتعامل محمد علي بقسوة بالغة مع المسلمين السُّنَّة المصريين، واعتماده على غير المسلمين من الأقباط والأرمن واليهود، وتنكره لنقيب الأشراف لشيخ عمر مَكْرَم بن حسين السيوطي، ونفيه إياه إلى دمياط سنة ١٢٢٢هـ، ثم طنطا التي توفى فيها، وإذكاء محمد علي نيران الفتن بين المماليك وغيرهم، وارتكابه مذابح جماعية فى حق المسلمين المماليك، وأشهر مذابحهِ مذبحة القلعة سنة ١٢٢٦ هـ/ ١٨١١م تلك المذبحة التي لايقوم بها الأ مَن خرج من دين الأسلام والأنسانية في نفس الوقت ومن الجوامع المشتركة التعاون في نشر الفجور والبدع بين البكتاشية المصرية والأسرة الحاكمة، وإلحاق الأذى الفاحش بالمسلمين السُّنة السعوديين كنوع من الأنتقام، ونُصرة الباطنيين في العراق بعد الهجوم السعودي على كربلاء، وهجومه على بلاد الشام، وارتكاب الفظائع فى حقّ المسلمين السُّنة، ومناصرة النصارى والنصيرية والباطنيين، وإحياء الجيش الأنكشاري في حلب وتقديم القرابين للبكتاشية بإشراف إبراهيم باشا، وتكرار نفس العمل في قونيا وغيرها من بلدان الأناضول.

والخلاصة إنّ حركات محمد علي باشا وعصيانه وتمرده قد ساهمت فى إضعاف الخلافة الاسلامية العثمانية، وتقوية أعدائها من روس وأوروبيين وباطنيين وصهاينة، وهكذا يعتبر من أخطر أعدائها، وأعداء العرب والمسلمين، حيث أن عصيانه قد مهَّد الطريق أمام الأحتلال الأنجليزي لمصر سنة١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م، والأحتلال الفرنسي للجزائر سنة١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠م، ولتونس سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م، والأحتلال الروسي للأفلاق والبغدان رومانيا سنة ١٢٦٥ هـ/ ١٨٤٨م، ونشر التغريب في مصر، وأضعف التعريب وأتاحت أسرة محمد علي المجال لعودة التشيع إلى مصر، وسمحت بدراسة ما يسمى بالمذهب الجعفري في الجامع الأزهر خدمة للباطنيين.

البكتاشية ومحمد على باشا

تُعتبر البكتاشية من أخطر الحركات الباطنية السرية الأيرانية التي لعبت دوراً أساسياً في تدمير السلطنة العثمانية السُّنِّيَّة، من خلال نشر العصيان والفساد الأخلاقي بين قوات الجيش الأنكشاري، وبلغ الخطر البكتاشي أقصى مداه حينما حرّكت البكتاشية أدواتها الأنكشارية في إسطنبول والبلقان في نفس الوقت الذي تحركت فيه الجيوش الأيرانية الباطنية على الجبهة الشرقية، وجيوش محمد علي باشا على الجبهة

الجنوبية، فهل كان محمد علي باشا باطنياً بكتاشياً معادياً لأهل السُّنَّة والجماعة؟

لاشكّ أن الغموض يحيط بشخصية محمد علي باشا، وشأنه في ذلك شأن بقية الباطنيين، وقد هاجرت أسرته المجهولة النسب من قونيا في الأناضول إلى قوَلَه، وأنيطت وظيفة المتسلم بعمِّه طوسون الذي أعدمته السلطنة العثمانية جرّاء جرائمه، فتأثر محمد علي، وعمل مراسلاً ثم دلالاً سمساراً في شركة ليون التجارية، وقام بتهريب الدخان وغيره من الممنوعات، وعندما بلغ الثامنة عشرة التحق بقوات الباشبوزوق ومارس الأرهاب بقسوة ضد الفلاحين لتحصيل الضرائب، فجمع ثروة من المال الحرام، ثم حضر إلى مصر كنائب لقائدة وحدة من الباشبوزوق للمساهمة في تحرير مصر من الفرنسيين، ولكن عودة قائد مجموعة الباشبوزوق أتاحت لمحمد علي رئاستها، فبدأ فى زرع الفتن بين المصريين مُعتمدا على المترجمين غير المسلمين لجهله باللغة العربية، وبنى مجده على أنقاض ما هدمه من أمجاد المصريين، وصعد بقوة تفوق قدرة الفرد، وتدلَّ على أن وراء ذلك الصعود تنظيماً باطنياً يقدّم الدعم المادي والمعنوي لمحمد على باشا الذي مثَّل الوجه الظاهر لذلك التنظيم الباطني، فما هو التنظيم الذي عزّز قوة محمد علي الطارئ على مصر ذات التقاليد الحضارية العريقة؟.

إن تتبُع الخيوط الدقيقة للبكتاشية والباطنية في مصر يقدِّم لنا معلومات تثير الشكَّ، وتفتح الأبواب أمام الباحثين عن الحقيقة رغم السِّرية الباطنية، والغموض الذي يحيط بالأسرة العلوية التي حكمت مصر بالحديد والنار والمؤامرات الدموية، وألحقت الأذي بالفلاحين والعسكريين المصريين والعلماء على حدٍّ سواء، ورعَتْ مصالح الْمُرابين غير المسلمين، واتخذت من مصر قاعدة لإلحاق الأذى بالمسلمين السُّنَّة في شبه الجزيرة العربية، وبلاد الشام والأناضول، وبذلك قدَّمت الأسرة العلوية خدماتٍ كبيرةً للباطنيين الصفويين الأيرانيين، وقوى الأحتلال الأوروبي من خلال إضعافها للسلطنة العثمانية مركز الخلافة الاسلامية السُّنِّيَّة في إسطنبول.

<u>الماسونية الثقافية فى مصر :</u>

كان النشاط الثقافي للماسونية يتمثل في الأهتمام بالفنون وعلم المصريات وقضايا التعليم والصحافة ولا ننسى بالطبع الدور الخفي للماسونية في الصحف القديمة في النصف الأول من القرن العشرين، حيث استكتبت كثيراً من الكتاب أمثال جورجي زيدان وشاهين مكاريوس مؤرخ الماسونية المصرية وكذلك ذلك الدور االذي لعبته الماسونية في توجيه دفة السينما المصرية ، واستقطابها لكثيرٍ من الفنانين أمثال محمود المليجي ومحسن سرحان وزكي طليمات مؤسس الحركة

المسرحية في الكويت في الستينات ويؤيد ذلك مع ما جاء مؤخرًا في حديثٍ للفنان كمال الشناوي الذي ذكر فيه بالأسم زكي طليمات وعبد الحميد حمدي ومحمود المليجي ومحسن سرحان، وأكد أنهم فشلوا في إدخاله المحافل الماسونية .

تحطيم عقيدة الولاء والبراء فى قلوب المسلمين

لقد تعمّد هذا الوالي الظالم تحطيم عقيدة الولاء والبراء وإزالتها من قلوب المسلمين ونفوسهم ولو بالقوة والنار، ليرضي أسياده الصليبيين وليخضع أمته وشعبه المسلم للمخططات الصليبية واليهودية ويكفي ما أورده الجبرتي المعاصر لهذه الشخصية، وما سجله عليها من سيئات، وما رصده من تحركات مشبوهة، وانتهاكات مكشوفة، مع أن الجبرتي يقف بتاريخه عند نهاية سنة ١٢٣٦هـ أي بعد حوالي ستة عشر عاماً من ارتقاء محمد علي لعرش مصر وهي في نظرنا فترة كافية استطاع خلالها أن يسبر غور شخصية محمد علي ويعرف مداخلها وتوجهاتها، ويلم بتطلعاتها وأهدافها .

ومع ذلك فقد استمر محمد علي في سدة الحكم بعد ذلك حوالي تسعة وعشرين عاماً، لم يدركها الجبرتي وعمل في تلك المدة من الزمن ما لم يكن يخطر على بال الجبرتي من الأعمال وأضعاف أضعاف ما انتقده عليه، وسجله في تاريخه فمن ذلك بيعه للغلال والحبوب إلى الأنجليز

وغيرهم من الأفرنج حتى شحت الغلال وغلت الأسعار وخلت منها الأسواق، بل أمر بمداهمة البيوت والدور لكبس الأقوات المدخرة، بدون ثمن لسوقها إلى الكفار الأنجليز الذين كانت تجوب أساطيلهم البحار لضرب المسلمين والتربص ببلادهم، والأستعداد للاستيلاء عليها وأحدث مكوساً جديدة، وفرض ضرائب باهظة، حتى ارتفعت الأسعار بشكل عظيم، وزاد ثمن كثير من البضائع إلى أكثر من عشرة أضعاف ثمنها وحل الكرب والضيق بالمسلمين، وأوذوا في معاشاتهم وأرزاقهم إيذاء عظيماً .

وإن كان من بكوات مصر من ركنوا إلى بعض النصارى، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، فإن محمد علي كان قد اعتاد أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود ، الذين تغلغلوا في حكومته وبلاطه، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملة الذين هم خاصته وجلساؤه وأهل مشورته، وشركاؤه في اختلاس أموال الدولة ونهب خيراتها، والذين ليس لهم شغل الأ فيما يزيد مكانتهم وحظوتهم عند مخدومهم وموافقة أغراضه، وتحسين مخترعاته، وربما ذكّروه ونبهوه على أشياء تركها أو غفل عنها من المبتدعات، وما يتحصل منها من المال والمكاسب .

وقد أظهر الجبرتي -رحمه الله- ألمه وتأسفه لما وصل إليه حال الكفار، والمكانة التي تبوأوها في عهد محمد علي وأنهم صاروا أعيان الناس، ويتقلدون المناصب الرفيعة ويلبسون ثياب الأكابر، ويركبون البغال والخيول المسومة وأمامهم وخلفهم العبيد والخدم، وبأيديهم العصي يطردون الناس ويفسحون لهم الطرق ، ويتسرون بالجواري ويسكنون المساكن العالية الجليله يشترونها بأغلى الأثمان.

ومنهم من له دار بالمدينة ودار مطلة على البحر للنزهة، ومنهم من عمر له داراً، وصرف عليها ألوفًا من الأكياس، وكذلك أكابر الدولة لاستيلاء كل من في خطه على جميع دورها، وأخذها من أربابها بأي وجه، ووصلوا بتقليدهم مناصب البدع إلى إذلال المسلمين؛ لأنهم يحتاجون إلى كتبة وخدم وأعوان والتحكم في أهل الحرفة بالضرب والشتم والحبس من غير إنكار، ويقف الشريف والعامي بين يدي الكافر ذليلاً ومن البديهي بعد أن أحاط محمد علي نفسه ببطانة من اليهود والنصارى، أن يعتمد عليهم كثيرًا، وأن يسند إليهم عددًا كبيرًا من المناصب الهامة في الدولة، ومع ذلك فلولا خوفه وخشيته من إثارة المسلمين وتألبهم عليه لاعتمد عليهم بالكلية ولأسند إليهم جميع المسئوليات والناصب دون مواراة وهذا ما عبر عنه محمد علي بنفسه حين هلك كاتب الخزينة في عهده وكان رجلاً نصرانيًا يدعى عبود

النصراني، وكان محمد علي يحبه ويثق فيه ويقول عنه: لولا الملامة لقلدته الدفترداریة والملامة هي العقيدة الطيبة في نفوس المسلمين من بغض للكفار ومعاداتهم تجعل الباشا المفتون بهؤلاء الكفار يتوقف في ولائه السافر لهم، وفي نقل خطوات مسيرته التغريبية بالأمة ومع ذلك فإن هؤلاء الكفار كانوا يشكلون مراكز الثقل في دولة محمد علي، خصوصاً في المجالأت المهمة كالشئون المالية والتعليمية والعسكرية ولئن كان الدفتردار ليس واحدًا منهم فجميع الوظائف المالية الأخرى تقريبًا احتكرها النصارى وغيرهم فقد كان كاتب الخزينة نصرانيًا، وكذلك فجميع الكتبة والصيارفة كانوا من النصارى أيضاً.

أما وزارة الخارجية فطبيعي جدًا أن تكون من نصيب النصارى حيث العلاقات كانت قائمة على أشدها مع الدول الأوربية وقد أسند هذا المنصب الهام إلى وزير أرمني يدعى باغوص بك الأرمني أما إدارة الجمارك وهي من الوظائف المهمة فقد كان يرأسها رجل نصراني له أعوان وجند كما يقول الجبرتي يحجزون أمتعة الناس، ويقبضون على المسلمين، ويسجنونهم، ويضربونهم حتى يدفعوا ما عليهم، ومن العجب على حد قوله أن بضائع المسلمين يؤخذ عشرها وبضائع الأفرنج والنصارى ومن ينتسب إليهم يؤخذ عليها من المائة اثنان ونصف وما دام أن رئيس الجمارك نصراني حقود فلا نعجب بعد ذلك من التفاوت

المذهل في أخذ الرسوم على الواردات من البضائع بين المسلمين وغيرهم.

وقد أصبحت مصر في عهد محمد علي وبالذات القاهرة محط نزول الكافرين من كل جنس، باستدعائه لكثير منهم، وفتح المجال أمام استثماراتهم وتجاراتهم، مما جعل البلد تضيق بالسكان، وتغص بالقادمين من الكفار الذين ضايقوا المسلمين في معايشهم حتى إن الأنسان ليقاسي الشدة والهول إذا مر بالشارع من الأزدحام الشديد، وبالأضافة إلى طوائف اليهود والنصارى فقد استدعى أعدادًا غفيرة من الدروز والموارنة والنصيرية وغيرهم من الفرق الخارجة عن الأسلام .

وحق لمدينة مثل القاهرة التي لم يكن يتجاوز طولها في ذلك الوقت الخمسة كيلو مترات أن تكتظ بهؤلاء الكافرين الذين تسابقوا إليها من كل حدب وصوب وفي تلك الفترة كانت تكثر الأضطرابات، وتشيع الفتن والمصادمات، خصوصاً بسبب ثورات العسكر المتلاحقة لقطع المرتبات وغير ذلك، وكان الشعب هو الضحية لتلك الثورات المحمومة وفي إحدى تلك الثورات العسكرية التي نهبت فيها الأسواق، وحطمت خلالها الحوانيت أراد المسلمون أثنائها أن يحصنوا بعض الحارات النافذة ويقوموا بإغلاقها حتى يقطعوا الطريق على جموع العساكر الهائجة لكن كتخدا الباشا منعهم من ذلك، في نفس الوقت الذي كان محمد علي يمد

فيه النصارى بالبارود والأت الحرب، بعد أن أتموا تحصين جهاتهم على أكمل وجه ، وهذه الواقعة تغني عن أي تعليق، وتدل على مدى العلاقة المريبة في الخفاء بين محمد علي ونائبه من جانب وبين النصارى من جانب آخر وحين قام محمد علي بإجراء واسع النطاق لهدم الدور والمساكن التي بها شيء من الخلل، كانوا يأمرون صاحب البيت الذي تم الكشف عليه بهدمه ثم تعميره، وإن كان يعجز عن ذلك فإنه يؤمر بإخلائه، ويعاد بناؤه عن طريق الميري وتصير من حقوق الدولة فهدمت مئات الدور التي كان يملكها أو يسكنها المسلمون أما النصارى فلنستمع إلى كلمة الجبرتي في ذلك حيث قال: وأما نصارى الأرمن وما أدراك ما نصارى الأرمن الذين هم أخصاء الدولة الأن فإنهم أنشأوا دورًا وقصورًا وبساتين بمصر القديمة فهم يهدمون أيضاً وينقلون لأبنيتهم ما شاءوا ولا حرج عليهم، إنما الحرج والمنع والحجر والهدم على المسلمين من أهل البلدة فقط .

وعندما تولى الحسبة رجل يدعى مصطفى كاشف أراد أن يعيد الكفار إلى حالتهم التي كانوا عليها قبل مجيء محمد علي إلى سدة الحكم، فأمر مناديه بمصر القديمة أن ينادي على نصارى الأرمن والأروام والشوام بإخلاء البيوت التي عمروها وزخرفوها وسكنوا بها والمطلة على النيل، وأن يعودوا إلى زيهم الأول من لبس العمائم الزرق، وعدم ركوبهم

الخيول والبغال لكن محمد علي قطع الطريق على هذا الأصلاح، وأمر بكف هذا المحتسب بعد أن تم زجره وتأنيبه، بعد أن تقدم أعاظمهم إليه بالشكوى وهو يراعي جانبهم لأنهم صاروا أخصاء الدولة وجلساء الحضرة وندماء الصحبة كما يقول الجبرتي .

ويمتد حبل الموالأة والمودة للكافرين في عهد محمد علي إلى شيء آخر له خطورته البالغة، وهو فتح البلاد على مصراعيها لأفواج النصارى الصليبيين للبحث والتنقيب، واكتشاف الأثار، ودراسة الأماكن دراسة دقيقة بل ومساعدته لهم وتذليله الصعاب في طريقهم .

وإذا تجاوزنا هدفهم الرئيسي لتلك العمليات والتنقيب، وهو وضع أيديهم على مراكز الثروة، ودراستهم للمواقع دراسة تخطيطية، مما أفادهم ولا شك في احتلال مصر فيما بعد عام ١٨٨٢ م خصوصاً إذا علمنا أن كثيرًا من هؤلاء المنقبين كانوا من الأنجليز.

فهناك أهدافاً أخرى تفوق ما ذكرناه خطورة لم يفطن لها كثير من الباحثين وندع الكلام لأحد المستشرقين ليكشف لنا هذه الأهداف البعيدة يقول ذلك المستشرق في كتابه الشرق الأدنى؛ مجتمعه وثقافته: إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الأسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الأسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الأسلام وبين تلك الحضارات .

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسر اهتمامات هؤلاء النصارى بشق البلاد طولاً وعرضاً، وإنفاقهم أموال طائلة في كشف الأثار وتعريتها بدءًا بالفرنسيين ثم بالأنجليز الذين ساروا على خط واحد في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة يقول الشيخ محمد قطب:

ولكن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الاسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ لذبذبة ولاء المسلمين بين الأسلام وبين تلك الحضارات، تمهيدًا لاقتلاعهم نهائيًا من الولاء للإسلام وبذلك يكون محمد علي باشا قد ساعد هؤلاء الصليبيين فى تنفيذ مخططاتهم والوصول إلى أهدافهم بفتح البلاد لهم شرقًا وغربًا يجوبونها بحرية تامة.

ويذكر الشيخ محمد قطب أن فرنسا قد احتضنت محمد علي احتضانًا كاملاً لينفذ لها كل مخططاتها حيث أنشات له جيشًا مدربًا على أحدث الأساليب ومجهزاً بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ وكان ذلك بإشراف سليمان الفرنساوي، وأنشات له أسطولاً بحريًا حديثاً وترسانة بحرية في دمياط.

والداهية أن يقوم كثير من الباحثين والأدباء بترجمة لرحلات الكثيرين من هؤلاء الأوروبيين الصليبين الذين لم يتركوا بلدًا إسلاميًا الأ وطئوه بغية ما ذكرناه من الأهداف السابقة، وينعتوها بأنها رحلات موضوعية

ونزيهة هدفها خدمة الأنسانية ونشر العلم والمعرفة فحسب دون النظر إلى دين أو جنس، ولكن سرعان ما يدهشك ما تجده في طيات هذه الرحلات من حقد صليبي دفين على الأسلام وأهله وعبارات مليئة بالسم الزعاف وبعضهم كان يظهر صليبيته صراحة كما فعل الرحالة اليوت واربرتون في كتابه الهلال والصليب وكثير منهم يحاول عدم إظهار شيء من ذلك، لكن تأبى عليهم صليبيتهم الحاقدة التي رضعوها مع لبن أمهاتهم محاولة إخفائه، وتفضح ما ادعوه من موضوعية وتجرد.

وأنشأت له القناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر، وكل ذلك كما يقول الشيخ ليس حبًا في شخص محمد علي أو حبًا في مصر، وإنما كان ذلك لتنفيذ المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بعد أن اضطرت للرحيل، وكان ذلك المخطط الخبيث يرمي إلى عدة أمور منها: القضاء على الدولة العثمانية، والقيام بتغريب العالم الاسلامي عن طريق تغريب مصر بلد الأزهر .

وقد قام محمد علي بالدور خير قيام! فالجيش الذي صنعته له فرنسا، وقام بتدريبه سليمان باشا الفرنساوي قد استخدمه محمد علي لا فى محاولة الأنفصلال عن الدولة العثمانية فحسب، بل في محاربة الدولة نفسها وقد كاد أن يقضي عليها لولا تدخل بريطانيا خوفاً من استئثار فرنسا بصداقة السلطان وبالنفوذ في مصر، وفي الوقت نفسه لتخدم

الهدف العام للصليبية بطريقة أخرى؛ فقد أوقفت بريطانيا محمد علي عند حده في الظاهر، ومنعته من مهاجمة الدولة، وفي الوقت ذاته ضمنت له الأستقلال الفعلي عن الدولة، والأستئثار بحكم مصر حكماً وراثيًا ينتقل في ذريته،مع التبعية الأسمية للسلطان بينما تجمعت أوروبا الصليبية كلها لتحطيم محمد علي في معركة نافارين لأنه نسي نفسه وتجرأ على مهاجمة دولة صليبية هي اليونان، فقد كبّرته الصليبية وسلّحته لمحاربة الأسلام فقط، فإذا فعل ذلك فله كل العون، وأما إذا هاجت أطماعه لحسابه الخاص، فمس أحد الصليبيين بسوء، فهنا يجب تأديبه، بل تحطيمه تحطيماً كاملاً إذا لزم الأمر على أن الجرم العظيم الذي تولى كبره محمد علي باشا هو قيامه بضرب الأتجاه الاسلامي السلفي في الجزيرة العربية تظاهراً بطاعة السلطان العثماني الذي فقد السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين، واتخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودي يشكل خطراً على مصالحهما، خصوصاً في الخليج العربي والبحر الأحمر وقد كان على رأس تلك الجيوش التي وجهها محمد علي ضباط فرنسيون وبعض النصارى .

وقد سرّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمر، وكذلك بريطانيا وأبلغت فرنسا محمد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنها ممنونة مما رأته من اقتداره عن نشر أعلام التمدن في البلاد الشرقية ، ومن ذلك بالطبع

ضرب الأتجاه السلفي في الجزيرة العربية أما تغريب العالم الاسلامي فقد عمل محمد علي على تحقيقه بفرض سياستين تغريبيتين، كانت الأولى تقضي بابتعاث الطلاب الشبان وإرسالهم إلى أوروبا ليتعلموا هناك.

وكان هذا -كما يقول الشيخ محمد قطب- أخطر ما فعله في الحقيقة لأنه من هناك بدأ الخط العلماني يدخل ساحة التعليم، ومن ورائه ساحة الحياة في مصر الاسلامية وقد كان من هؤلاء المبتعثين الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي إمام إحدى البعثات وشيخها، الذي عاد محصلاً معه بذور التغريب والعلمنة كالدعوة إلى تحرير المرأة، وأخذ يسهم في زعزعة عقيدة الولاء والبراء بإغراقه في مديح أوروبا الكافرة والثناء عليها في كتب كثيرة لعل من أبرزها كتابه في مدح باريس الذي قيل إنه أهداه إلى محمد علي فقبله باحترام وقد بلغ عدد من أرسل من المصريين إلى سنة ١٨٤٢ م مائة تلميذ .

وقد كاد أن يتم إرسال أطفال بين الثامنة والتاسعة إلى أوروبا، واشترط نوبار باشا وهو سكرتير إبراهيم باشا ولي عهد محمد علي ونجله الأكبر أن يفصل بعضهم عن بعض في المعيشة أو يوضع كل اثنين في غرفة صغيرة .

لكن هذا المخطط الخبيث أوقف تنفيذه بسبب هلاك إبراهيم باشا حتى جاء الخديوي توفيق ونفذ ذلك المخطط وبدأ بإرسال نجليه الأميرين

عباس حلمي ومحمد علي إلى سويسرا وكان عمر الأول اثنتي عشرة سنة والثاني عشر سنوات .

أما سياسة التغريب الثانية التي سار عليها محمد علي فهي إنشاء نظام تعليم جديد على نسق أنظمة التعليم في الغرب يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم: ومهما يكن من شيء، فقد ظهر لمحمد علي أن التعليم في الأزهر لا يمكن أن يحقق أغراضه كما ظهر له أن التعليم الغربي أو التعليم الذي عرفته أوروبا في عصره كان وحده الوسيلة لتحقيق أغراضه، وكان هذا كافيًا ليحمل محمد علي أن يحول وجهه عن الأزهر والكتاتيب وينشئ بجانبها نظاماً تعليمياً قائماً بنفسه، مقتبساً من الغرب، وليس بينه وبين نظام التعليم القديم الأ ما يكون بين نظامين يقومان جنبًا إلى جنب ويتجاذبان تعليم ناشئة البلاد .

والأ فلو كان محمد علي مسلماً حقًا ولم يكن منفذاً لأهداف الغرب ومخططاته لاتجه إلى إصلاح الأزهر والتعليم في عصره بردهما إلى الوضع الصحيح، ووضع كل إمكانياته التي استغلها في التغريب في سبيل ذلك الهدف الكبير لكن محمد علي أصر على السير بالأمة في مضمار التغريب المؤدي إلى الحياة الغربية وأساليبها وثقافتها، فقرر إنشاء نظام تعليم كامل من المرحلة الأبتدائية إلى المراحل العليا، وفتح المدارس على نمط المدارس الغربية.

وقد لجأ محمد علي إلى الترجمة، حيث ترجمت كثير من الكتب في مختلف العلوم والقوانين العسكرية والبحرية، وقام بابتعاث الطلاب إلى هناك، واستقدام الأساتذة الأجانب إلى المدارس الجديدة التى أنشأها على أن هناك هدفاً خطيرًا كان يرمي إليه محمد علي باشا من وراء إنشاء هذا النظام التعليمي الجديد الأ وهو إلغاء دور الأزهر في المجتمع ومن ثمّ القضاء عليه بصورة غير مباشرة، وذلك حين يقوم بفتح العديد من المدارس ذات المميزات العالية التي تؤهل الدارسين فيها لتبوء المناصب الهامة، والأعمال الرفيعة في دولة الباشا.

يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم: ولكن ابتعاد الأزهر عن مجال التوظيف أو عدم اتخاذه الأهبة لإعداد تلامذته بمايؤهلهم للحياة وللمجتمع الذي يعيشون فيه لم يلبث أن باعد بينه وبين كثير من خاصة الناس وصرفهم عنه إلى حد كبير فقد كانت المناصب التي يصيبها خريجو المدارس، والثراء والأحترام اللذان يحظون بهما في أنحاء البلاد من سواد الناس ومن إليهم كل أولئك كان يخلب ألبابهم ويستهويهم إلى المدارس التي تقدم لهم هذا كله .

وهل يكون إلغاء دور الأزهر وتحجيم أنشطته الأ بصرفه عن مجالأت التوظيف، أو على الأصح بصرف مجالأت التوظيف عنه ؟ وقطع صلته بالحياة العامة ؟ وحين أنشأ محمد علي مدارسه الحديثة كان محتاجاً إلى

معلمين للغة العربية ولم يكن هناك بالطبع غير الأزهرلذا فقد اتجه محمد علي إليه وأخذ منه ما يكفي مدارسه ومكاتبه من المعلمين، فكانوا فريقًا هاماً من موظفي المدارس ولكن كيف كانت معاملته لهؤلاء الأزهريين الذين أعوزته الحاجة إليهم وقاموا بدور كبير في تدريس اللغة العربية وفروعها داخل المدارس التي أنشاها كما يشهد بذلك كل من كتب في التعليم في ذلك العصر ؟ يجيبنا على ذلك الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فيقول: وكانت الحكومة تعلم أنهم لم يكونوا يمنحون في الأزهر مرتبات كبيرة، ولهذا نراها تبخل عليهم بتلك المرتبات وترى أنهم إنما يقومون بمقاصد خيرية ثوابها عند ربهم فقد كان هناك مدرسون بل رؤساء مدرسين قضوا بمدارسهم اثنا عشر عاماً لا يصيبون من الحكومة الأ مائتي قرش في الشهر، وهو قدر ضئيل يناله خريج مدرسة خصوصية حديث العهد بالوظائف، ثم هي تبخل عليهم بعد هذا ببضعة قروش تضيفها إلى مرتباتهم أما مكاتب المبتديان فقد كان نظارها من علماء الأزهر وكان المشايخ من الأزهر وما إليه هم القائمون بالتدريس في مكاتب المبتديان وكان مرتب الواحد منهم أربعين قرشاً في الشهر أي بزيادة عشرة قروش على مرتب الحلاق أو الخياط وكان كاتب المكتب يصيب من المرتب أكثر مما يصيبه المعلم بعشرين قرشًا وكان يحمل الحكومة على هذا ما ذكرنا من أنها كانت تعلم أن أهل الأزهر لم يكونوا يصيبون فيه الأ أجرًا ضئيلاً أن كانوا قومًا زاهدين، لا يغرنهم متاع الحياة

الدنيا وما ذكر من تبرير ساقط لا يمكن أن يخفي أبدًا مقدار البغض والأحتقار الذي كان يكنه محمد علي للأزهر ورجاله وإن كان الأنجليز فيما بعد قد نهجوا نفس السياسة في احتقار الأزهريين وبخسهم مرتباتهم وحقوقهم، وإقصائهم عن مجالأت التوظيف .

فليس ذلك بمستغرب منهم، ولكنا نستغرب أن يقوم بذلك من يحسب على الأسلام والمسلمين، مثل محمد علي لكن سرعان ما يزول هذا الأستغراب إذا عرفنا أن القائمين على التعليم في عهد محمد علي كان معظمهم من الغربيين النصارى، فمجلس شورى المدارس وهو الهيئة العليا للتخطيط والتنفيذ كان جميع أعضائه من الأجانب ما عدا ثلاثة على أن هناك أمرًا تجدر الأشارة إليه حول ما ذكر من ضآلة الأجور والمرتبات في الأزهر والتي كان من أهم أسبابها قيام محمد علي بالأستيلاء على الأوقاف التابعة للأزهر وضمها للدولة، وبالتالي إحكام السيطرة على المشايخ والقائمين على التعليم من رجال الأزهر وحتى الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم والعلوم الأولية للناشئة من أبناء المسلمين، لم تنج من غائلة محمد علي؛ فقد ذكر الجبرتي أن كثيرًا من المكاتب أغلقت بسبب تعطل أوقافها واستيلاء محمد علي عليها وذكر الشيخ محمد عبده أن ما أبقاه محمد علي من أوقاف الأزهر والأوقاف الأخرى لا يساوي جزءًا من الألف من إيرادها وأنه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي إلى اليوم

في عهد الشيخ محمد عبده لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوي أربعة الأف جنيه في السنة .

هذه السياسة التغريبية التي نهجها محمد علي والمفروضة قهرًا على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها إلى الرحيل وهو أمر أكده المؤرخ الأنجليزي أرنولد توينبي في قوله كان محمد علي ديكتاتورًا أمكنه تحويل آراء نابليون إلى حقائق فعالة في مصر وهل يشك باحث عاقل بعد كل هذه الحقائق أن محمد علي كان صنيعة من صنائع الغرب وعميلاً من عملائهم.

وسواء أكان وصوله إلى سدة الحكم نتيجة تخطيط صليبي أو على الأخص تخطيط فرنسي أو كان نتيجة لدهاء محمد علي ومكره ونفاقه أو كان للأمرين معاً فإن هذا كله لا يغير شيئًا، ولا ينفي أن محمد علي قد احتوته الدول الغربية، وأخذت تقوده في ركابها، خصوصًا وأن فيه من الصفات والخلال التي ينشدها المستعمرون دائمًا كجنون العظمة وغلظة القلب ونسجل هنا ملاحظة ذكرها المؤرخون حول أهداف التعليم وغاياته في عصر محمد علي وأنها لا تعدو تخريج جيل يدين بالولاء التام لشخص محمد علي أو الجناب العالي كما كانوا يسمونه ويتقرب بخدمته

أما أن يكون الهدف هو إعداد جيل من الشباب المسلم يخدم دينه وأمته فذاك أمر لا يتفق مع سياسة محمد علي في ولائه للغرب وتبعيته له.

وقد عمل محمد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء، واستخدام سياسة العسف والأرهاب والتنكيل في أنحاء مملكته لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين، ويقضي عليها قضاءً مبرمًا .

قال الرحّالة الأنجليزي (كنجليك) الذي زار الشرق الاسلامي في الثلث الأخير من حكم محمد علي ١٢٥٢ - ١٢٥٣هـ (١٨٣٣ - ١٨٣٤م) غامزًا الباشا المفتون، وذاكرًا تبعيته للغرب وعدم استقلاله الكامل بإصدار القرار الأ بعد موافقة أسياده عليه يقول: وبرغم وجود الجيوش المصرية الكثيرة فقد فهم كل فلاح أن أربعة أو خمسة من الوجوه الشاحبة في فيينا أو بطرسبورج أو لندن يمكن أن ينزلوا الباشا المصري من عليائه بمجرد ورقة يكتبون عليها حكمهم عليه وكان علم الأهالي أن قوة محمد علي مستمدة من القائد الفرنسي وفنونه الحربية ومن المحركات والألات الأنجليزية وقد قام ابنه إبراهيم باشا بإلغاء كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود في كل بلد سيطر عليه تحت دعوى المساواة والحرية، وذلك في أثناء حكمه للشام من قبل أبيه، وقام بإعطاء النصارى امتيازات؛ ومن ذلك فتح محلات علنية لبيع الخمور في دمشق

والسماح بحمل الصلبان وشرب الخمر في الشارع وعندما ذهب إليه نفر من علماء الشام يشكون إليه انقلاب الأوضاع ويبسطون أمامه ألمهم من استعلاء الذميين وركوبهم الخيل كالمسلمين لم يكن من إبراهيم الأ أن سخر منهم سخرية مرة وردهم كاسفي البال؛ إذ نصحهم أن يركبوا الجمال من اليوم حتى يصيروا أعلى من النصارى كافة؟ .

وقد شمخ النصارى بأنوفهم، وأشرأبت أعناقهم خصوصًا رجال الدين منهم في عهد محمد علي وابنه إبراهيم باشا؛ ومن ذلك أن بطريرك الروم مكسيموس في حلب وقت احتلال إبراهم باشا لها كان يدور أحيانًا في شوارع حلب وهو راكب بأبهة زائدة وموكب حافل يتلقى المسلمون منه ذلك كارغام لهم وتعالي عليهم قاصدًا إهانتهم أما اليهود فقد شملهم عطف الباشا، ونعموا بالحرية التي أطلقها لهم والأمتيازات التي منحهم إياها وحادثة يهود صفد أوضح مثال على ذلك؛ يوم أن ثار المسلمون عليهم ونهبوا بعض أموالهم وممتلكاتهم، ولسنا الأن بصدد الحديث عن هذه الثورة وأسبابها، إنما الذي يعنينا هو ما حدث بعد هذه الثورة من إصرار القناصل الأوربيين على دفع التعويض من خزينة الدولة العلوية، وقد بالغ كل من القناصل واليهود في تقدير حجم الخسائر والمنهوبات، أما قنصل بريطانيا في الأسكندرية فقد قدر من مكانه هناك أن خسائر اليهود قد بلغت سبعين ألف جنيه، وهو رقم يفوق ما وقع أضعافًا

مضاعفة ولم يسع محمد علي تحت ضغط القناصل الأ أن يصدر أمرًا بتعويض اليهود لكن ليس من خزينة الدولة التي يملكها، بل من أموال وممتلكات المسلمين الذين تحمل فقراؤهم والمعسرون منهم ثقل هذا التعويض.

ومع علم محمد علي بكذب ادعاءات اليهود والقناصل ومبالغتهم في تقدير الخسائر الأ أنه كما قال: ما دام أصدقاؤنا القناصل أصروا وصمموا على ذلك فتخلصنا من هذه القائلة فقد صدرت الأوامر خطية إلى سليمان باشا الفرنساوي ببيع أملاك وعقارات هؤلاء الفقراء لتقسم أثمانها على المدعين كذباً وتلك الأوامر مرسلة لتسليمها إلى القناصل ليوصلوها بمعرفتهم إلى الباشا ومع عظم الهالة التي أحيط بها محمد علي من قبل المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من المؤرخين القوميين والعلمانيين حول ما قام به من إصلاحات في كثير من المجالأت التعليمية والاقتصادية والعسكرية الأ أنه من الثابت من سيرة محمد علي أنه يكره المصريين ويحتقرهم ويزدريهم أيما ازدراء، كما قال أحدهم: إن محمد علي كان يحب مصر ولم يكن يحب المصريين.

وليس أدل على ذلك الأ قوله يخاطب الفرنسيين ويفاوضهم على مسألة احتلال الجزائر وهو: ثقوا أن قراري لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الأعتبارات التي يتقيد بها قومي

وقد تقولون أن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها وقد كان محمد علي باشا متواطئًا مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، حتى لقد هم بعد أن جاءته الأوامر بالطبع أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين وعملاً لحسابهم الخاص الأ أن أسياده رفضوا تلك الفكرة التي تهيج المسلمين وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم؛ لذا بادروا إلى إلغائها، واكتفى محمد علي بتزويد الفرنسيين في الجزائر بالغلال ويذهب الدكتور سليمان الغنام إلى أن بريطانيا لما علمت بعزم محمد علي ثارت ثائرتها وهددته بنسف أسطوله إن هو فكر في ذلك وهذه وقفة متأنية مع واحد ممن حكموا المسلمين فترة طويلة وعملوا على القضاء على مظاهر هذه العقيدة بشكل مباشر تمثل في سياسة العسف والأرهاب وبشكل غير مباشر اتخذ التغريب له مساراً، وإن كان الشكل الثاني كانت له آثار بعيدة المدى، على عكس الأول الذي ما زاد هذه العقيدة في نفوس المسلمين الأ رسوخاً واستحق بذلك جد الأسرة العلوية أن يكون رائد التغريب الأول في العالم الاسلامي، وعلى رأس من لجوا في موالأة الكافرين، وأمعنوا في اتباعهم، وسعوا في تقويض هذه العقيدة العظيمة بكل ما أوتوه من وسائل القوة التي كانوا يملكونها.

إحلال ولاء الوطن محل الدين والعقيدة:

لأول مرة في تاريخ المسلمين تظهر كتابات تتكلم عن الوطنية والمواطن والتغني بالوطن على حساب الدين لأول مرة في تاريخ الأسلام تحل رابطة الأرض والعرق والدم والقرابة محل الرابطة الدينية الأيمانية، ولما كانت القضية الوطنية تحتاج إلى سياج يحميها، نبش دعاة التغريب في تاريخ ما قبل الأسلام، من تاريخ الفراعنة والفينيقيين وبابل آشور...إلخ لقد تكلم الطهطاوي عن تاريخ الفراعنة بفخر واعتزاز بغية تأكيد مفهوم الولاء والبراء على أساس الأرض والدم والقرابة، فتمجيد تاريخ ما قبل الأسلام كان لتأكيد مصطلحات الجاهلية الجديدة (الوطن/ المواطن /الوطنية).

تمجيد الطهطاوي لتاريخ الفراعنة

تحت عنوان حضارة مصر القديمة يقول الطهطاوي: أجمع المؤرخون على أن مصر عظم تمدنها، وبلغ أهلها درجة عليا في الفنون والمنافع العمومية، فكيف لا وآثار التمدن وأماراته وعلاماته مكثت فى مصر نحو ثلاثة وأربعين قرناً يشاهدها الوارد والمتردد، ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج، مع تنوعها كل التنوع، وسلاطينها هي من أقوى دلائل العظمة الملكية وفيها بيت فرعون، وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الأخضر، وكان لها سبعون باباً، وهي مدينة المملكة

المصرية، وكانت منازل الملوك من القبط الأولى والعماليق ومسكن الفراعنة، ومازال الملك بها إلى أن ملك الروم اليونان ديار مصر، فانتقل كرسي المملكة منها إلى الأسكندرية ومع ذلك لم تزل عامرة إلى أن جاء الأسلام، ثم خربت، وفيها كانت الأنهار تجري من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار والمصريون من قديم الزمان كانوا منقادين للحكم الملكي، فكانوا مطيعين لملكهم، وكان الملك منقاداً أيضاً لقوانين المملكة وأصولها، وكانت حكماء مصر تذكر الملوك دائماً بالحقوق والواجبات، وتحثهم على التمسك بالفضائل الملكية،وتعلن من يصرفهم عنها من بطانة السوء وأهل النفاق ويستمر الطهطاوى على هذا المنوال ثم يأتي بعد ذلك ليقول ويستدل بهذا أيضاً على أن قوانين معاملة الخدم والرقيق كانت عادلة لايسوغ فيها للسيد الذي أساءه عبده كل الأساءة أن ينتقم منه لنفسه، كما يحب ويختار، فهذا يفيد أن الملة كانت متمدنة فأي عدل هذا وأي تمدن هذا الذي يتكلم عنه الطهطاوي والقوم قد سجنوا البرئ؟!!

من خلال هذا التصور الجديد للوطن والوطنية ضرب الطهطاوي أمثلة للأسوة والقدوة من تاريخ الفراعنة وتعظيمه لفرعون مصر (فخر الدولة المصرية في الأزمان الجاهلية ومصباح تاريخها)!! فأي فخر هذا لملك يفرط في أرضه ويدخل الأجانب ويمنحهم هذه الأمتيازات على حساب

شعبه وأبناء جلدته فهذه دعوى الجاهلية الأولى، ولسنا نتقول على الرجل بل هذه أقواله شاهدة على آرائه الغريبة عن عالمنا الاسلامي.

فالطهطاوي لم يكتف بتحسين التاريخ الفرعوني بل تمادى في إطرائه لدرجة أنه مدح ديانة الفراعنة تأمل هذا الأحياء الجديد لهذه الرمم التي عفا عليها الزمن إنها دعوى للفرعونية وبعثها من جديد لتأكيد مفهوم الوطن والوطنية والعودة إلى العصبية للأرض والقرابة أي دعوة إلى عدم اعتبار رابطة الأسلام والأيمان التي دعا إليها القرآن الكريم (إنما المؤمنون أخوة) وتكمن خطورة الطهطاوي في كونه عالماً أزهرياً يستشهد بالأيات القرآنية والأحاديث النبوية وكثير من أبيات الشعر، مما يسهل مهمة تلبيس الحق بالباطل، وهذا نجده واضحاً في قوله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة، علا مطيته، واستقبل الكعبة، وقال: والله لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لما خرجت.

أقول: هذا الحنين إلى الديار أمر فطري لاجناح عليه، ولايتناقض وعقيدة الولاء والبراء في الأسلام، لكنه في حالة تعارض الولاءات، فالرسول صلى الله عليه وسلم قدم ولاء العقيدة والأسلام على ولاء الأرض رغم أن مكة خير بقاع الأرض، فهنا انتصر ولاء العقيدة على ولاء الوطن، ومن قبل فعل نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما تعارض

ولاء الأبوة والرحم مع ولاء العقيدة قال تعالى: (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) وقال تعالى: (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وقد كان هذا منهج الصحابة رضوان الله عليهم؛ ففي غزوة بدر تباينت الولاءات، وتمايزت البراءات، فالمهاجرون يقاتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم من المشركين، وهم بنو وطن واحد، وعشيرة واحدة، بل وعائلة واحدة، فهذا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يقتل أباه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقتل خاله، فانتصر ولاء العقيدة على ولاء القرابة والدم والأرض.

وقد أفاض القرآن الكريم في هذه القضية وركز على ولاء العقيدة والأيمان فقال تعالى: (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الأيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم. إن الله لايهدي القوم الظالمين) لكن الطهطاوي يتغافل عن هذه الأيات البينات في عقيدة الولاء والبراءة ويضرب بها عرض الحائط ويضّيق المفهوم الواسع للولاء والبراء في العقيدة الاسلامية وينادى برابطة جديدة تحل محل رابطة الأسلام.